مجلة أبوليوس
المجلد 09 العدد 01 – جانفي 2022
الصفحات: 210- 224

التوجيه الدّلالي للذّكر والحذف في حروف المعاني في المتشابه اللّفظيّ في القرآن الكريم

The Denotative Orientation of Stating and Eclipsing the Letters of Meaning in the Homonyms in the Holy Quran

د. عبد الله زيتوني*
المدرسة العليا للأساتذة – مستغانم، الجزائر
zitouni.abdellah510@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2021/08/22 تاريخ القبول: 2021/12/03 تاريخ النشر: 2022/01/31

ملخص البحث:

تروم هذه الورقة البحثية استجلاء الأثر الدّلالي لذكر حروف المعاني وحذفها في المتشابه اللفظي في القرآن الكريم المعجز ذي النّظم البلاغيّ الفريد والأسلوب البيانيّ الرّائع في التأليف بين أفصح الألفاظ وأصحّ المعاني. وتطرح هذه الدّراسة إشكالية مفادها: ما الأغراض البلاغيّة المستفادة من الآيات المتشابهة لفظا عند ذِكر أحد حروف المعاني في سياقها أو حذفه؟

وللإجابة عنها وقع اختيارنا على طائفة من حروف المعاني الّتي وردت- مذكورة تارة ومحذوفة تارة أخرى- في تراكيب قرآنيّة ذات تشابه لفظيّ تامٍّ أو شبه تامّ، توصّلنا من خلال دراستها - في ضوء توجيهات ثلّة من مفسرّي تلك الآيات- إلى نتائج منها: أنّ ذكر هذه الحروف له بالغ الأثر في توكيد المعنى، والتنّبيه على أمر مراد أو المبالغة في التّنبيه عليه، أو يأتي مناسبا لمقام التّفصيل، بينما حذفها يناسب مقام الإيجاز.

الكلمات المفتاحية:

التّوجيه؛ الدّلالة؛ الحذف؛ الذّكر؛ حروف المعاني؛ المتشابه اللفظيّ؛ القرآن الكريم.

Abstract:

This research aims to clarify the semantic effects of mentioning or deleting letters of meanings in the homonyms in the Holy Qur'an, which has a unique rhetorical system and a wonderful figurative style in composing and using the most eloquent terms and the most accurate meanings. This study addresses the following question: What are the rhetorical purposes that can be learned from verses with homonyms when one of the letters of meanings is mentioned or omitted in their contexts. In order to answer this question, we selected a group of letters of meanings, which are mentioned sometimes and omitted thereafter in Qur'anic structures with complete or almost complete homonyms. In the light of the instructions of a group of interpreters of those verses, the results reveal that citing these letters have a great impact on emphasizing the meaning and highlighting or excessively notifying the target matter. Moreover, mentioning these letters can be appropriate to the contextual detailing, while deleting them suits and serves briefness.

Keywords: Orientation; semantics; deletion; stating, letters of meanings; homonyms , the Holy Qur'an.

* المؤلّف المراسل

مقدمة:

يُعدّ علم المتشابه اللّفظي من أجلّ علوم القرآن الكريم باعتباره يمثّل أحد أوجه إعجازه البياني، لما اشتملت عليه آياته البيّنات المتشابهات في لفظها من تراكيب متنوّعة جاءت على أكمل اتّساق وانسجام مع سياق ورودها في سُورِها الكريمة.

وقد عني ثلّة من علماء البيان والتّفسير بالمتشابه اللّفظي في القرآن الكريم عناية بالغة، فألّفوا في موضوعه كُتبا كثيرة، أشهرها في القديم والحديث:

1- درّة التّنزيل وغرّة التّأويل في بيان الآيات المتشابهات في كتاب الله العزيز، للخطيب الإسكافي(ت421هـ)، وقد قام بتحقيقه: محمد مصطفى آيدين، ونشرته جامعة أمّ القرى، المملكة العربيّة السّعوديّة، عام 1418هـ.

2- أسرار التّكرار في القرآن المسمّى البرهان في توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحجّة والبيان، لمحمود بن حمزة الكرماني(ت505هـ) بتحقيق: عبد القادر أحمد عطا، وقد نشر بدار الفضيلة بالقاهرة، عام 1977م.

3- ملاك التّأويل القاطع بذوي الإلحاد والتّعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التّنزيل، لأحمد بن الزّبير الغرناطي(ت708هـ)، وتولّى وضع حواشيه: عبد الغني محمد علي الفاسي، ونشر بدار الكتب العلمية، بيروت في لبنان. وقد حظي هذا الكتاب بدراسة مستفيضة لمسائل المتشابه اللفظي اللّغوية المذكورة فيه من نحو وصرف وبلاغة ودلالة، قام بها محمد فاضل السّامرائي ضمن كتابه الموسوم بـ" دراسة المتشابه اللفظي من آي التّنزيل في كتاب ملاك التّأويل"، الّذي نشره بدار ابن كثير بسوريا، عام 2016م.

4- كشف المعاني في المتشابه من المثاني، لبدر الدّين ابن جماعة(ت773 هـ)، حقّقه: عبد الجواد خلف، ونشر في دار الوفاء في المنصورة بمصر عام 1990م.

5- على طريق التّفسير البياني، لفاضل صالح السّامرائي، ونشرته جامعة الشّارقة بالإمارات العربيّة المتّحدة عام 2002م.

6- التّعبير القرآني، لفاضل صالح السّامرائي، ونشر بدار ابن كثير بسوريا عام 2015م.

7- جواهر الدّرر في علم مقارنات السُّوَر: رُؤية تأصيليّة للرّوابط المضمونيّة واللّفظيّة لمجموعات الأُسَر القُرآنيّة، امحمد محمد صافي المستغانمي، ونشر بدار ابن كثير بسوريا عام 2018م.

ولم يدّخر هؤلاء المؤلّفون جهدا لتبيان بلاغة التعبير القرآني في الآيات المتشابهة، وبيان أسراره وأغراضه الجليلة التي يقتضيها سياق أسلوبه.

أمّا موضوع دراستنا وهو الذّكر والحذف في حروف المعاني، فحريّ بنا قبل التّعرف على بلاغته في آي المتشابه اللّفظي أن نعرّفه لغة واصطلاحا وضوابطه عند النّحاة والبيانيين.

1- تعريف الحذف في اللّغة والاصطلاح:

1-1- الحذف لغة:

تشير المعطيات المعجميّة إلى أنّ المعنى اللّغويّ لمادة " ح ذ ف" يدور حول قطْع الشّيء من الطّرف، وإسقاطه، جاء في لسان العرب:" حذف الشيء يحذفه حذفا، قطعه من طرفه... وحذفُ الشّيء إسقاطه "[1].

1-2- الحذف اصطلاحا:

يُقصد بالحذف في الاصطلاح: "إسقاط جزء الكلام أو كلّه لدليل"[2]، وهذا الجزء المُسقَط من الكلام قد يكون حركة أو اسما أو فعلا أو حرفا، وإذا أُسقط كلّ الكلام فلا يكون إلاّ جملة[3]، شريطة وجود القرائن الحاصلة من السِّياق دالةً على هذا الحذف، قال ابن جنّي:" قد حَذفت العربُ الجملة،

والمفرد، والحرف، والحركة، وليس شيء من ذلك إلاّ عن دليل عليه. وإلاّ كان فيه ضرب من تكليف علم الغيب في معرفته"[4].

2- الذّكر والحذف في حُروف المعاني لدى النحاة:

من المعلوم من نحو اللّغة بالضّرورة أنّ الكلمة فعل واسم وحرف، قال سيبويه: " الكلم اسم وفعل، وحرف جاء لمعنى ليس باسم ولا فعل"[5]. وكلّ حرف يُعَدُّ كلمة ذات دلالة بعينها في التّركيب، والحروف التي نقصدها هنا إنّما هي ما اصطلح على تسميتها " حروف المعاني"، وهي التي تربُط الأسماءَ بالأفعال والأسماء بالأسماء. وتدل على معانٍ في غيرها[6]،مثل: حروف الجرّ، وحروف العطف.

وقد ذكر النّحاة أنّ الحروف لا يجوز فيها الحذف أو الزّيادة: "وأنّ أعدل أحوالها أن تُستعمَل غير مزيدة ولا محذوفة، فأمّا وجه القياس في امتناع حذفها فمِن قِبَل أنّ الغرض من الحروف إنّما هو الاختصار، ألا ترى أنّك إذا قلت: ما قام زيد، فقد نابت(ما) عن (أَنْفِي)، وإذا قلت: هل قام زيد؟ فقد نابت(هل) عن(أستفهم)، فوقوع الحرف مقام الفعل وفاعله غاية الاختصار، فلو ذهبت تحذف الحرف تخفيفا لأفرطت في الإيجاز؛ لأنّ اختصار المختصر إجحاف به"[7]، ولكن هذا القياس العقلي لا يتماشى وواقع اللّغة الّتي ورد فيها حذف للحروف في مواضع عديدة، واللّغة لا تخضع في ظواهرها لمنطق العقل[8]، وهذا الواقع اللّغوي هو الّذي حملَ ابن جنّي على أن يقول: " هذا هو القياس ألاّ يجوز حذف الحروف ولا زيادتها، ومع ذلك فقد حُذِفَت تارة وزيدت تارة أخرى"[9]، وورود حذفها في الاستعمال اللّغوي يرجع لقوّة الدّلالة على المحذوف، فصارت القرائن الدّالة كالتّلفّظ به[10].

فحذفُ أحد حُروف المعاني إذاً مشروط بالدّلالة عليه بإحدى القرائن اللّفظية أو المعنوية، ولذا نُلْفِي مُعْرِبِي القرآن قد حرصوا على الارتباط الوثيق بين حذف الحرف والمعنى والتّقدير.

3- الذّكر والحذف في حروف المعاني عند البيانيين:

لمعرفة حذف الحرف في محكم التّنزيل حدّد أهل البيان ضابطين: أوّلهما؛ دلالة الحرف المحذوف على معنى مع بقاء هذا المعنى بعد الحذف، وثانيهما؛ عدُّ الحرف محذوفاً بالقياس على موضع آخر مماثل ورد فيه الحرف دون حذف[11]، أي مذكوراً في التّركيب، فالذّكر لا يقلّ شأنا وأهميّة عن الحذف من حيث بلاغته، فقد " يذكر القرآن ما يذكرُه، ممّا يبدو أنّ السّياق يُجيز حذفه، عندما يكون في هذا الذّكر تثبيت للمعنى، وتوطيد له في النّفس، ويكون في ذكره فضلا عن ذلك معان لا تستفاد إذا حُذِف"[12].

4- المقاصد البلاغيّة لذكر حروف المعاني وحذفها في المتشابه اللّفظي القرآني:

يستعمل الخطاب القرآني الذّكر والحذف في حُروف المعاني استعمالا فنّيّا رائعا، فقد يذكر حرفا من حروف المعاني في آية ويذكره في آية أخرى شبيهة بها، على اختلاف في درجة التّشابه اللّفظيّ، فقد يكون التّشابه تامّا أو شبه تامّ؛ وذلك لغرض يقتضيه السّياق من الوجهة البلاغيّة، وليس من وجهة الصّنعة النّحويّة؛ لأنّ الكثير من المباحث البلاغيّة مرجعها إلى المباحث النّحويّة أو معاني النّحو كما أشار إلى ذلك عبد القاهر الجرجاني في كتابه (دلائل الإعجاز)، حين قال:" ليس النّظم شيئا إلا توخّي معاني النّحو وأحكامه ووجوهه وفروقه فيما بين في معاني الكلم"[13].

وقد وقع اختيارنا في هذه الدّراسة على طائفة من حروف المعاني ذُكرت في موضع من آيات المتشابه

اللفظي القرآني وحُذفت في موضع آخر، وهي: كاف الخطاب، واو العطف، و" مِنْ " الجارّة، و" أن" و" ما" الزّائدتان. وسنتعرّف في ضوء توجيهات بعض علماء التّفسير والبيان لتلك الآيات المتشابهات في اللّفظ على مختلف الدّلالات والأغراض المعنويّة المترتّبة عن حذف هذه الحروف من التركيب القرآني أو ذكرها فيه.

1-4- كافُ الخِطاب:

قد يُذكَر كافُ الخطاب في موطن ويحذَفُ في موطن آخر شبيه به، من ذلك قوله تعالى:﴿ **قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾ [14].

وقوله: ﴿ **قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ**﴾ [15].

وقوله:﴿ **قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ**﴾ [16].

وقوله:﴿ **قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ**﴾ [17].

فقد خصّ الآيتين (40) و(46) من سورة الأنعام بزيادة كاف الخطاب دُون الآيتين(47) من سورة الأنعام و (50) من سورة يونس.

ويرى جمهور النّحاة أنّ الكاف اللاحقة لـ: " أَرَأَيْتَ" (بمعنى" أخبرني")، هي حرفُ معنى لا محلّ له من الإعراب[18].

وجاء في لسان العرب: " وَإِنَّمَا الْكَافُ زِيَادَةٌ فِي بَيَانِ الْخِطَابِ، وهي الْمُعْتَمَدُ عَلَيْهَا فِي الْخِطَابِ فَتَقُولُ لِلْوَاحِدِ الْمُذَكَّرِ :أَرَأَيْتَكَ زَيْدًا مَا حَالُهُ؟" [19].

وذهب الفيروزآبادي(ت817 هـ) في توجيهه هذه الآيات إلى أنّ جملة " أرأيتكم" المذكورة في آيتي الأنعام الأُوليين ليس لها في العربيّة نظير؛ لأنّه جمْعٌ بين علامَتَي خطاب، وهما التاءُ والكاف، والتّاءُ اسم بالإجماع، والكاف حرف عند البصريين يفيد الخطاب فحسْبُ، والجمع بينهما يدلُّ على أن ذلك تنبيه على شيء، ما عليه من مزيد، وهو ذكر الاستئصال بالهلاك، وليس فيما سواهما ما يدلّ على ذلك، فاكتفي بخطاب واحد، ألا وهو التّاء في " أرأيتمّ"[20].

ويتبيّن من هذا التّوجيه أن اجتماع علامتي الخطاب(التاء والكاف) في سياق واحد يفيد التّنبيه على استئصال الكافرين بالهلاك.

وقد بيّن الخطيب الإسكافي سبب تخصيص كاف الخطاب بالزّيادة في الآيتين السّابقتين، فقال:" لا اختلاف في ترادف الخطابين "التاء" و"الكاف"... ولا يترادفان إلا عند المبالغة في التنبيه، والمبالغة فيه هو أن يعلم المخاطب أنه لا تنبيه بعده، وما يتصل بقوله :"أرأيتكم" في الموضعين كلام يدل على ما إذا وقع لم ينفع عنده الزجر والتنبيه، ألا تراه يقول: ﴿أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ أَو أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللهِ تَدْعُونَ﴾ وعند إتيان العذاب وقيام الساعة لا ينفع الانتباه ولا يقع التنبيه.

و "أرأيتكم" فعل متعدٍّ إلى مفعولين، والجملة الّتي هي:﴿إنْ أتاكم عذاب الله﴾ مضمّنة مفعوليّه، وكذلك قوله:﴿ قُلْ أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله بغتة أو جهرة هل يهلك إلا القوم الظالمون ﴾...فلمّا علّق بـ" أرأيتكم" جملة تتضمن مفعوليها، ومعنى الجملة تناهي الأمر في تخويفهم بالخشونة إلى حيث ينقطع التنبيه عندها، كان هذا الموضع أحق المواضع بالمبالغة فيه لمرادفة التنبيه، فلذلك أتى بالتّاء والكاف اللّتين لا تخلوان من الخطاب... فالآية الأولى تقديرها: "أرأيتم أنفسكم داعية غير الله إنْ أتاكم عذاب الله"، والآية الثانية تقديرها: " أرأيتم أنفسكم غير هالكة إنْ أتاكم عذاب الله بغتة أو جهرة، وأرأيتم أنفسكم هل يُهلَك غيرها؛ لأنّهم هم الظّالمون... [21].

ويفهم من كلامه أنّ الغرض المعنوي من ترادف "كاف الخطاب" و"التّاء" في "أرأيتكم" هو المبالغة في التّنبيه، وهو الغرض نفسه الّذي أشار إليه مفسّرون آخرون أمثال ابن الزّبير الغرناطي ومحمّد الطّاهر بن عاشور(1879-1973م)[22].

ويوجّه أبو حيّان الأندلسيّ(ت745 هـ) الآيتين (40) و(46) من سورة الأنعام توجيها آخر، فيقول:" لمّا ذكر أوّلا تهديدهم بإتيان العذاب أو السّاعة، كان ذلك أعظم من هذا التّهديد(أخْذ سمعهم وأبصارهم والختم على قلوبهم)، فأكّد خطاب الضّمير بحرف الخطاب، فقيل:" أرأيتكم". ولمّا كان هذا التّهديد أخفّ من ذلك لم يؤكّد به بل اكتفى بخطاب الضّمير فقيل: " أرأيتم" "[23].

ويظهر من هذا التّوجيه أنّ أبا حيان قد استنبط من إلحاق كاف الخطاب بضمير الخطاب ما تفيده الكاف من معنى التوكيد في الخطاب القرآني.

وإذا كان الخطيب الإسكافي قد رأى أنّ كاف الخطاب أفادت الزّيادة في التّنبيه، وأبو حيان ذهب إلى أنّها مؤكّدة للمعنى، فإنّ بدر الدّين بن جماعة قد جمع بين الغرضين كليهما، ورأى أنّها منصرفة إلى معنى التّوكيد في التّنبيه، قال: " لمّا كان المتوعَّدُ به شديدا أكّد في التّنبيه عليه بالجمع بينهما (علامتي الخطاب: تاء الضّمير وكاف الخطاب) مبالغة في الوعد"[24].

ويعلّل الخطيب الإسكافي اقتصار الآيتين الأخريين على "أرأيتم" دون ترادف التاء وكاف الخطاب في كلّ واحدة منهما: فيقول: " لأنّ الجملتين بعدَهما لم تتضمّنا من المبالغة فيما يحذرون ما ينقطع التنبيه عنده. أمّا الأولى فقوله: " قُل أرأيتم إنْ أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم من إله غير الله يأتيكم به" أي: أَعَلِمْتُمْ إنْ سلبكم الله صحة ما تحسون به المشاهدات، وتعلمون به المغيبات إلها غير الله يردّها عليكم؟ وليس هذا استئصالا كما في الآيتين المتقدمتين... وأمّا قوله:﴿ **أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتاً أَوْ نَهَاراً مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ**﴾؛ فلأن قبله:"**وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ**"[25] مُخبراً أنّهم استعجلوا العذاب وقيام الساعة فَنُزِّلُوا منزلة مَن لا يخافون ما أوعدوا به، ولذلك قال: ﴿**مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ**﴾ فلم يكن فيه صريح الاستئصال والإفصاح بالهلاك، فكأنّه لم يبلغ حدّا لا مزيد للتنبيه فيه، بل هم في تلك الحال أحوجُ ما كانوا إلى الزجر، إذ لم يبلغ منتهاه، كما بلغ في الآيتين الأخريين، وصار التّقدير: " أَعَلِمْتُمْ أَيَّ شَيْءٍ يستعجل المجرمون من عذاب الله، أي هم يستعجلون هلاكهم ولا يعلمون. ومعناه: أَعَلِمُوا هُمْ - طالبين هلاك أنفسهم- ما يستعجلونه مِن نُزول عذاب الله بهم... "[26].

والمراد بكلامه أنّ المخاطبين في الآيتين اللتين خلت فيهما " أرأيتم" من كاف الخطاب ليسوا بحاجة إلى الزّيادة في التّنبيه والمبالغة فيه، بل هم في حاجة إلى الزّجر؛ لأنّ سلْبهم سمْعَهم وأبصارَهم من الأمور المشاهَدة عند كثير من الخلق، ولهذا قال:" أرأيتم" دون " أرأيتكم".

4-2- الواو العاطفة:

قد نجد في القرآن الكريم من الآيات المتشابهة ما تختلف في ذِكر أحرُف العطف وحذْفها، فقد يذكر حرف العطف في موطن ويحذف في موطن آخر. من ذلك قوله تعالى:﴿ **أُوْلَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ**﴾ [27] وقوله:﴿ **وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفاً تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ** ﴾[28].

فقد قال في آية آل عمران:﴿ **وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ**﴾بذكر الواو العاطفة قبل فعل المدح

"نِعْمَ"، وفي آية العنكبوت﴿نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ بدونها، على الرغم من أنّ الآيتين كلتيهما في سياق الجزاء المعدّ للمؤمنين يوم القيامة.

يوضّح الخطيب الإسكافي سبب اختصاص فعل المدح "نِعْمَ" في آية آل عمران فيقول: إنّ " الآية من هذه السورة مبنيّة على تداخل الأخبار؛ لأنّ أوّلها: ﴿ أُوْلَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾. فـ" أُولَئِكَ" مبتدأ، و"جزاؤُهم" مبتدأ ثان، و"مغفرة" خبر المبتدأ الثاني، وهو مع خبره خبرٌ عن المبتدأ الأول، والجزاء هو الأجر، فكأنه قال: " أولئك" أَجْرُهُمْ على أعمالهم" مَحْوُ ذُنوبهم، وإدامة نِعَمِهم، وهذا الأجر مُفَضَّل على كُلّ أجر يُعْطَاه عاملٌ على عَمِله، فَنُسِّقَتِ الأخبارُ بعضُها على بعض للتّنبيه على النِّعم التي هُيِّئَتْ لرجاء الرَّاجين، وأُكْمِلَت بها مُنْيَة المُتَمَنّين، والخبرُ إذا جاء بعْدَ خَبَرٍ في هذا المكان الذي تُفَصَّلُ فيه المواهب المرغَّب فيها، فحقّه أنْ يُعطَف على ما قبله بالواو، وكقولك: هذا جزاءُ كذا وكذا، أي: هُوَ تركُ المؤاخذة بالذَّنب والتَّنَعُّم في جنّة الخلد، وتَفْضِيلُه على كل جزاء جُوزِيَ به عامِل، وذلك تشريف وكرامة "[29].

وفحوى كلام الإسكافي أنّ التّخصيص بإدخال الواو العاطفة في آية آل عمران سببه ما وقع فيها من ذكر جزاء المؤمنين مفصّلا معطوفا، وذلك بإطالة بناء الجملة بتعدّد الأخبار والعطف بينها عطفا نسقيّا (المغفرة والجنات والخلود)، فكان ذلك مناسبا لدخول "الواو" العاطفة على فعل المدح فقيل: ﴿ وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾، وإفادتها التّنبيه، وإنْ كان الزّمخشري(ت538هـ) رأى في توجيه الآية أنّ ذكر الواو قبل جملة المدح كان لغرض هو" زيادة التّنبيه على أنّ ذلك جزاء واجب على عمل، وأجر مستحقّ عليه"[30].

وإذا كان الخطيب الإسكافي قد وجّه آية آل عمران بناء على ما تفيده الواو العاطفة من التّنبيه على عِظَم الجزاء المعدّ للمؤمنين يوم القيامة، وتبعه في ذلك ابن الزّبير الغرناطي[31]، فإنّ بدر الدّين بن جماعة قد وجّهها بناء على ما تفيده " الواو" من التّعدّد والتّفخيم[32].

ويرى محمود الكرماني أنّ الواو العاطفة زيدت في آية آل عمران؛ لأنّ الاتّصال بما قبلها أكثر من غيرها(والمراد بغيرها : آية العنكبوت الّتي لم يدخل فيها على جملة المدح عاطف)، وتقديره: ونِعْمَ أجرُ العاملين المغفرةُ والجنّات والخلود.

وأمّا آية العنكبوت فلم تتقدّم فيها الأخبار متعددة معطوفة فجاءت بغير واو، كأنّها من تمام الجملة، وإلى هذا المعنى ذهب الخطيب الإسكافي في توجيهه، قال: "إنّ الكلام فيها مدرج على جملة واحدة وهي: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنْ الْجَنَّةِ غُرَفاً تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾.

فقوله: "والَّذِينَ آمَنُوا" مبتدأ، وقوله: "لَنُبَوِّئَنَّهُمْ" في موقع خبره، وهذا الخبر يتصل به مفعولان.

الأول: "هم"، والثاني: غُـــرَفاً. و"غُـــرَفاً" نكرة موصوفة بقوله: " تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ"، وقوله: "خَالِدِينَ فِيهَا" حالٌ من التَّبْوِئَة.

فلما جُعِلَتْ هذه العناصر كُلّها في درج كلام واحد، وهي جملة مبتدأ وخبر، واحتمل ﴿نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ مجيئه بالواو ومجيئه بدونها، اختير مجيئها بغير واو ليشبه ما تقدَّم من صفة الخبر، لا على سبيل عطْفٍ ونسَقٍ بها.

ويحتمل أن يكون في موقع خبر ومبتدأ، كأنّه قال: " ذَلِكَ نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ"، وبناء على هذا يكون "ذلك" إشارةً إلى ما ذكرَ الله من إسكانهم الجنّة، فيجري بلا واو مجرى ما هو من تمام الكلام الأوّل

كقوله تعالى:﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾[33]. فقوله: "ذلك" وإن انقطع عن الأوّل في اللّفظ فإنّه متّصل به من طريق المعنى، فكأنه قال لهم: "ما يشاءون عند ربهم" مشار إليه بأنه الفضل الكبير"[34].

وقد ذهب ابن جماعة كذلك مذهب الإسكافي في هذا التّوجيه[35].

3-4- " مِن " الجارّة:

إنّ من الذّكر والحذف في حروف الجرّ دُخولَ "من" الجارّة على "قبل"، و" بعد" في موضع دون آخر.

وقد اختلف النّحاة في المعاني التي تفيدها "من" الدّاخلة على بعض الظّروف غير المتصرفة مثل "قبل"، و" بعد"، على ثلاثة آراء:

- أوّلها أنّ معناها لابتداء الغاية.

- والثّاني أنّها بمعنى " في"، قال الرّضيّ(ت684 ه): " و"مِنْ " الدّاخلة على الظّروف غير المتصرّفة أكثرها بمعنى "في" نحو: جئت من قَبْلِك ومِن بَعْدِك، ﴿وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾[36]وأمّا نحو: جِئْتُ مِنْ عِنْدِك و﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ﴾[37] فَلابْتِدَاء الغاية" [38].

- والثّالث أنّها زائدة للتوكيد، وهو المعنى الّذي ذكره الجوهري (ت393ه) في الصّحاح: "وقد تدخل مِنْ " توكيداً لغواً "[39].

وجاء في همع الهوامع: " والأصحّ أنّها : أي مِنْ (في قبل وبعد) ابتدائيّة، وهو قول الجمهور" [40].

ويرجّح فاضل صالح السّامرائي كذلك هذا الرّأي وينفي أن تكون " مِنْ " بمعنى" في" أو زائدة، يقول: " والّذي يبدو لي أنّ الأوّل هو الرّاجح، وليست بمعنى "في"؛ لأنّ الأصل عدم النّيابَة، وليست بزائدة؛ لأنّ الأصل عدم الزّيادة. وإذا أمكن عدم إخراجها من معناها الّذي وُضِعت له فهو الأولى، ولا تُصرف عن معناها الأساسيّ إلا إذا تعذّر إبقاؤها عليه "[41].

ومن ذلك حذْفُ " مِنْ " قبل الظّرف(قبلهم) في قوله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لأُوْلِي النُّهَى﴾[42].

وذكرُها قبله في قوله تعالى:﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ أَفَلا يَسْمَعُونَ﴾[43].

يقول الخطيب الإسكافي في توجيه الآيتين: "إنّ القائل إذا قال: " كم أهلكنا قبلهم" فكأنّه قال في الزّمن المتقدّم على زمانهم، وإذا قال: "من قبلهم" فكأنّه قال من مبتدأ الزّمان الّذي قبل زمانهم "[44].

ويُفهم من كلامه أنّ استعمال﴿ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ﴾ يوحي بأنّ زمنَ الإهلاك المتقدّمَ على زمانهم غير محدّد سواء من حيث طوله أو قصره، على حين أنّ قوله (كم أهلكنا من قبلهم) يدلّ على أنّ الهلاك صار في الزّمن الّذي قبل زمانهم مباشرة.

وإذا كان الخطيب الإسكافي قد وجّه الآيتين بناء على ما تفيده " من" الجارّة من ابتداء الغاية الزّمانية فإنّ ابن الزّبير الغرناطي قد وجّههما على وفق ما تفيده " مِن" من الاستغراق والعموم، قال: " وأمّا زيادة " من" في قوله في سورة السّجدة: "من قبلهم" فإنّها مقصود فيها استغراق عُموم؛ لمناسبة ما تقدّم هذه الآية من حصر التّقسيم في قوله:﴿ أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لاَ يَسْتَوُونَ﴾ وأعقبت به ما يفهمه قوله تعالى:﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ أَفَلا يَسْمَعُونَ﴾ إذ ليس هنا الوارد كالوارد في سورة طه من قوله:﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لأُوْلِي النُّهَى﴾ فهذا يُشعر بخصوص يناسبه سقوط " من" الاستغراقيّة، وما في آية السّجدة يُشْعِر بعموم واستغراق تناسبه"

من" في قوله: "مِنْ قبلهم"، فجاء كلّ على ما يُناسب ويجب"[45].

ويوحي سياق سورة السّجدة بسبب آخر للتّخصيص، وهو أنّ الله تعالى ذكر فيها هلاك مَنْ هُم في زمان الرسول– صلى الله عليه وسلم- ووفاتهم فقال: ﴿ **وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ**﴾[46]، فبدأ بهلاك مَنْ هُم أقرب إلى رسوله المصطفى فوظّف" مَنْ" الدّالة على ابتداء الغاية. بخلاف سياق سورة " طه" فإنّه ذكر قوم موسى عليه السّلام وأحوالهم، وهم قبْل الرسول – صلى الله عليه وسلم– بمدة طويلة[47].

ويمكن توجيه الآيتين توجيها آخر بناء على سمة بارزة في التّعبير القرآني، وهي أنّه يُطيل بذكر "مِنْ "؛ لتوكيد المعنى إذا كان المقام يستدعي الإطالة والتّفصيل وما يصاحبه من وعيد وتهديد للأمم السّابقة، ويحذفها إذا كان المقام يقتضي الإيجاز والإجمال، وهذا ما اهتدى إليه السّيوطي (ت911 ه) في توجيهه لآيتي طه والسّجدة، يقول: " تزاد- أي مِنْ- حيث يراد تأكيد مضمون الآي من العُصاة، والإشارة إلى الوعيد، وهي أبداً في أمثال هذه المواضع محرِزة معنى التأكيد لا تنفكّ عن ذلك، ثم إنّ حذْفها أوجزُ من إثباتها، ولكلّ مقام مقال، فحيثُ ورد مِن هذه الآي ما قبله استيفاء تفصيل وعيديّ في أُمَّةٍ بعينها أو أكثر، أو تكرَّر التّهديد وشدّة التّخويف من مُقتضى السّياق وهو فحوى الكلام، فذلك موضِعُ زيادتها والتأكيد بإثباتها، وحيث لا يتقدّم تفصيلٌ على ما ذكرناه، أو تكون آية التهديد لا تَبْلغ في اقتضاء مُقتضاها نُفوذ الوعيد، فهذا يناسبه الإيجاز بحذفها، إذ لا يراد من تأكيد الوعيد ما يراد في الآي الأُخَرَ"[48].

وتوجيه السّيوطي للآيتين يعدّ استقراء جيّدا، وذلك؛ لأنّ سورة السّجدة تتميّز بالشّدّة والإشارة إلى إنفاذ الوعيد بدليل قوله تعالى:﴿ **وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ**﴾[49]، وكان ختمها بقوله تعالى: ﴿ **وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ**﴾ [50]، وقد وقعت الآية بين هذين الوعيدين والتّهديدين، فناسبَ ذكر "مِنْ"، وأمّا آية طه فلم يرد فيها من التّغليظ والوعيد وتوالي التّهديد ما في آية السّجدة[51]، فناسب ذلك حذف " مِنْ".

ويبدو من خلال توجيه السّيوطي والتّفسير المصاحب له أنّ " للعلماء في تفسير هذا الذّكر والحذف ضوابط كثيرة أو مفاتيح يُرْجعون إليها المتشابهات في هذا المجال، فقد يُرجعون هذا- على سبيل المثال- إلى وحدة القرآن أو وحدة السّورة القرآنية "[52].

4-4- " أنْ " الزّائدة:

ذكر ابن هشام(ت761ه) أنّ من المعاني الّتي تفيدها " أنْ "، مجيئَها زائدة في مواضع معيّنة، والموضع الأكثر أن تقع بعد " لَمَّا " التّوقيتيّة"[53]، ولا يعني كونها زائدة أنّ ذكرها كحذفها، وحسبنا آيتان متشابهتان من آي التّنزيل الحكيم زيدت" أن" في موطن منها دون الموطن الآخر؛ لسبب اقتضاه السّياق القرآني.

أمّا الآية الأولى فهي قوله تعالى: ﴿**وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ**﴾[54].

وأمّا الثّانية فهي قوله: ﴿**وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَقَالُوا لا تَخَفْ وَلا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلاَّ امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ**﴾ [55]. فقد زيدت " أنْ" بعد " لَمَّا " في آية العنكبوت، ولم تُذكر في آية هود، على الرّغم من أنّ مضمون الخبر فيهما واحد، يقول الخطيب الإسكافي:

"اقتران "أنْ " بـ" لمّا "في سورة العنكبوت تكملة لمعناها في نفسها ليدل بذلك على أنه قد قارن جوابها متّصلا به ما يكمّله ويخلّصه لتحقيق أو بطلان، فالتي في سورة العنكبوت قد اتصل بجوابها، وهو ﴿سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً﴾ما يكمّله ويخلّصه لبطلان الذّرع السّابق إليه، ومثله ﴿فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا﴾ [56]. فقوله: " أَلْقَاهُ " جواب" لمّا "، وقوله متّصلا به ﴿فَارْتَدَّ بَصِيرًا﴾ تكملة للجواب... وهي في قوله في سورة هود لم يتّصل بجوابها ما يخلّصه لتحقيق أو بطلان إلا في الآية الخامسة عند قوله:﴿ قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾[57]فبَعُدَ هذا عن الجواب ولم يتّصل به ما يكون من تمامه[58].

وقد صاغ محمود الكرماني(ت505 هـ) كلام الخطيب الإسكافي صياغة دقيقة حين تعليله زيادة " أنْ" في العنكبوت، وعدم زيادتها في هود، فقال: " " لمّا " يقتضي جوابا، وإذا اتّصل به "أنْ" دلّ على أنّ الجواب وقع في الحال من غير تراخٍ؛ كما في هذه السّورة، وهو قوله:﴿سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً﴾... وفي هود اتّصل به كلام بعد كلام إلى قوله:﴿ قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾ فلمّا طال لم يحسن دُخولُ " أنْ "[59].

والمراد بالجواب هنا ليس جواب" لمّا" النّحوي، بل النّتيجة والهدف من مجيء الملائكة وهو تدمير قوم لوط، وقد طال الكلام في هود والمقاولة بين الرّسل وبين لوط، أمّا في العنكبوت فقد جاء بعد الآية مباشرة:﴿ إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزاً مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾[60] وليس فيها ما يدلّ على إمهال[61]، وبعبارة أكثر تفصيلا فإنّ " أنْ" في آية العنكبوت زيدت للدّلالة على استطالة الوقت وطول التّرقّب والانتظار، أي أنّ استطالة الوقت مناسبة لاستطالة الآية بزيادة " أنْ"، فإنّ " برْم لوط بقومه وضيقه بهم في سورة العنكبوت كان أظهر وأشدّ ممّا في سورة هود، كما يبدو أنّ ترقّب لوط للتّخلّص من قومه في سياق العنكبوت كان أظهر ممّا في هود"[62].

وهذه الزّيادة للانتظار شبيهة بقوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا﴾، إذ زيدت " أَنْ" بعد "لمّا"؛ لتناسب حالة الانتظار والتّرقّب الّتي كان يمرّ بها يعقوب عليه السّلام، فقد كان متلهّفا جدّا لرؤية ولده يوسف عليه السّلام، فكان من طبيعة هذه الحال أن يستطيل أي مدّة زمنيّة تمرّ به، فالفصل في الآية بـ "أنْ" الزّائدة بين "لمّا" ومجيء البشير والمباعدة بينهما إشعار باستطالة الوقت وطول الانتظار، وهذا ما عبّر عنه السّيوطي في قوله: " لمّا كان مجيء البشير إلى يعقوب عليه السّلام بعد طول الزّمن وتباعد المدّة ناسب ذلك زيادة " أن" لِمَا في مقتضى وضْعها مِن التّراخي"[63].

ويبرز مصطفى صادق الرّافعي(1880-1937م) ما لزيادة " أَنْ" من دور في إضفاء الرونق والروعة على التّصوير الفنّي لهذا الفصل من قصة يوسف عليه السّلام، فيقول: "إنّ في هذه الزّيادة لونا من التّصوير لو هُوَ حُذِف من الكلام لذهب بكثير من حُسنه وروعته، فإنّ المراد بالآية... تصويرُ الفصْل الذي كان بين قِيام البشير بقميص يوسف وبين مجيئه لبُعد ما كان بين يوسفَ وأبيه عليهما السلام وأنّ ذلك كأنّه كان مُنتَظراً بقلق واضطراب تؤكّدُهما وتصِف الطّربَ لمقدمه واستقراره، غُنَّةُ هذه النُّونِ في الكلمة الفاصلة؛ وهي " أَنْ" في قوله:﴿ أَنْ جَاءَ﴾ "[64].

وهناك عدّة أغراض معنوية مستفادة من زيادة" أن" في الآية السّابقة، من ذلك أنّها تأتي للدّلالة على التّوكيد والتّحقيق والتّنبيه، يقول الطّاهر بن عاشور:" "أنْ" حرف مزيد للتّوكيد... وتحقيق الربط بين مجيء الرّسل ومساءة لوط لهم، ومعنى تحقيقه

هنا سرعة الاقتران والتّوقيت بين الشّرط والجزاء؛ تنبيها على أنّ المساءة عقبت مجيئهم وفاجأته من غير ريث، وذلك لما يعلم من عادة معاملة قومه مع الوافدين على قريتهم، فلم يكن لوط عالما بأنّهم ملائكة؛ لأنّهم جاءوا على صورة رجال فأريد هنا التّنبيه على أنّ ما حدث به من المساءة وضيق الذّرع كان قبل أن يعلم بأنّهم ملائكة جاءوا لأهل القرية وقبل أن يقولوا: ﴿ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ﴾"[65].

ونستشفّ من كلام ابن عاشور أنّه إذا زيدت " أن" بعد لمّا" الحينيّة فاحتمال الدّلالة المفاجأة دون تراخٍ، فإذا لم تُزَدْ فهناك تراخٍ، وبالتّالي فإنّ زيادتها مُؤذِنة بأنّ النّتيجة الّتي يتشوّق إليها المتلقّي تُذكر مباشرة دُون تريّث أو تمهّل[66].

كما تأتي زيادة " أنْ" لغرض آخر هو مناسبة مقام الإطالة والتّفصيل، فتُذكَر في موطن التّفصيل وتُحذَف من موطن الإيجاز، والدّليل على ذلك أنّه في آيتي هود والعنكبوت اللتين زيدت" أن" في أولاهما وحُذِفت من الأخرى "أفاض في ذكر القصّة في سورة العنكبوت أكثر ممّا هو في هود، فقد ذكرَ فيها من صفات قوم لوط السّيئة ما لم يذكره في هود، فقد قال:﴿ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ الْعَالَمِينَ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمْ الْمُنكَرَ﴾[67] ولم يزد في هود على أن قال:"﴿ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾[68] ففصّل في عمل السّيئات ما لم يفصّله في هود"[69].

وهكذا تكون "أنْ" سمة أسلوبيّة تُذكر في التّعبير القرآني عند إرادة طيّ بعض الكلام واختصاره، والانتقال إلى النّتائج، دون ذكر جميع المقدّمات، والحقائق، وتُترك عند إرادة إطالة الكلام وتفصيله [70].

4-5- " مَا " الزّائدة:

يرى النّحاة أنّ "ما" الزائدة تدخل بعد أدوات الشّرط؛ لإفادة التّوكيد. يقول ابن يعيش (ت643 ه): " قد تُزاد " ما" مع " إنْ " الشّرطيّة مُؤكِّدة، نحو قولك: " إمّا تأتني آتِك" والأصل: إنْ تأتِني آتِكَ، زِيدَتْ " مَا " على " إنْ " ؛ لتأكيد معنى الجزاء"[71]. ويقول ابن هشام:" وتزاد–أي: ما- بعد أداة الشّرط، جازمة كانت، نحو: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ...﴾[72]، و﴿إِمَّا تَخَافَنَّ...﴾ [73]، أو غير جازمة نحو:﴿حَتَّى إِذَا مَا جَاؤُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ... ﴾[74]"[75].

ويقول أبو إسحاق الزّجّاج(ت311 ه):" "ما" حرف زائد للتّوكيد "[76].

ومن شواهد المتشابه اللفظي القرآني على ذلك قوله تعالى:﴿ حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[77].

وقوله:﴿حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾[78].

فقد زيدت "ما " بعد "إذا " في التّركيب في الآية الأولى، ووردت الآية الثّانية بدونها.

وقد بنى الخطيب الإسكافي توجيهه لهاتين الآيتين المتشابهتين لفظا على قاعدة تضبط استعمال " ما" الزّائدة بعد " إذا " الشّرطيّة مفادها: "إذا قُصِد توكيد معنى الشّرط الذي تتضمّنه " إذا " لقوّة معنى الجزاء استعملت "ما" بعدها، وإذا لم يُقصَد ذلك لقرب معنى الجزاء من الشّرط لم تستعمل "ما" بعدها "[79].

يقول الإسكافي: "قوله تعالى:﴿ حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ﴾ شهادة السمع وسائر الجوارح من المعاني القوية التي لا يقتضيها الشّرط الذي هو المجيء، ألا ترى استنكارهم لها حين قالوا لجلودهم: ﴿ لِمَ شَهِدْتم علينا ﴾ فأجابوا بأنْ قالوا:﴿ أنطقنا الله الذي أنطق كل

شيء﴾، وليس كذلك ﴿حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِّحَتْ أَبْوَابُهَا﴾؛ لأن المجيء يقتضي فتح الأبواب، وإنْ أُضْمِر في الثّاني الجزاء على معنى: حتّى إذا جاءوها نالوا المُنى عندها وأدركوا مطلوبهم ومرغوبهم فيها، فقد صار المكان مكان اختصار وحذْف لما لابدّ للكلام منه، فكيف يُزاد فيه ما يُستغنى عنه؟... فليس في الجزاء ما يوجب قُوّة الشّرط من المعنى الذي لا يُتوقّع ولا يستفاد إلا به ومنه، ولا يكون في الشرط تنبيه عليه وإشارة اليد، فيتركُ التوكيد حيث لا يدعو داع إلى الإتيان به أحسن، وإذا دعا الداعي إليه فالإتيان به أحرى وأقمن"[80].

وقد سبق الإسكافيَّ إلى هذا الرّأي الزّمخشريُّ، جاء في الكشّاف: " فإنْ قُلْتَ: ما في قوله:﴿ حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا﴾ ماهي؟ قُلْتُ: مزيدة للتّأكيد ومعنى التّأكيد فيها أنّ وقت مجيئهم النّار لا محالة أن يكون وقت الشّهادة عليهم ولا وجه لأَنْ يخلوَ منها، ومثله قوله تعالى:﴿ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ﴾ [81] أي: لابدّ لوقوعه من أن يكون وقت إيمانهم به شهادة الجلود بالملامسة للحرام وما أشبه ذلك ممّا يقضي إليها من المحرّمات"[82].

ويرى ابن عاشور رأي الزّمخشري والإسكافيّ في أنّ الغرض من زيادة " ما" في الآية الكريمة هو التّوكيد، يقول:" "ما" زائدة للتّوكيد بعد "إذا"، تفيد توكيد معنى" إذا" من الارتباط بالفعل بعد " إذا " "[83].

بينما يعزو ابن الزّبير الغرناطي سبب زيادة "ما" في آية فصّلت إلى أنّ هذه الآية بُنِيَتْ على ما يستدعي الإطالة، وسبب عدم زيادتها في آية الزّمر إلى أنّ تلك الآية بُنِيَتْ على الإيجاز[84].

خاتمة:

لا يُذكَر حرفُ معنى في المتشابه اللفظي في القرآن الكريم ولا يُحْذَف إلا لعلّة يقتضيها سياق آياته، ولا يمكن الاهتداء في توجيه الآيات المتشابهة لفظا إلى معرفة سبب اختصاص كلّ آية بما خُصَّت به من ذِكْر أو حذْف إلا عن طريق معرفة سياقها وأسباب نزولها، والمعرفة الجيّدة بقواعد النّحو والصّرف.

وقد عرفنا من خلال توجيهات المفسّرين العلماء بالمتشابه اللّفظي أنّ لذِكْر حُروف المعاني وحذفها في آي القرآن المتشابهة أغراضاً ودلالات كامنة وراء ذلك نوجزها فيما يأتي:

1- ذِكْرُ كافُ الخطاب في المتشابه اللّفظي يُقصد منه التّنبيه على أمر ما أو المبالغة فيه أو توكيده.

2- ذكرُ الواو العاطفة قبل فعل المدح" نِعْمَ" مناسب لمقام إطالة بناء الجملة بتعدّد الأخبار والعطف بينها عطفا نسقيّا، ومن أغراضه تفخيم الأمر وزيادة التّنبيه عليه. بينما الاستغناء عن ذكر الواو العاطفة قبل فعل المدح يكون في حال غياب تعدّد الأخبار والعطف بينها، فكأنّ جملة المدح هي من تمام الجملة.

3- ذكر حرف الجرّ " من" قبل الظرف " قَبْل" يخلّصه لمعنى ابتداء الغاية الزّمانيّة أو معنى الاستغراق والعموم، أو توكيد معنى التهديد الوعيد ويناسبه مقام الإطالة والتّفصيل، بينما حذف "مِنْ" يناسب مقام الإجمال والإيجاز.

4- اتّصال " أنْ " الزّائدة بجواب "لَمّا" التّوقيتيّة يدلّ على وقوع هذا الجواب في الحال دونما إمهال، ولزيادتها عدّة أغراض أهمّها الدلالة على استطالة الوقت وطول التّرقّب والانتظار، وتوكيد المعنى، وتحقيق أمر والتّنبيه عليه، وإضفاء قيمة جماليّة فنّيّة على التّصوير الفنّي خصوصا في مقام السّرد القصصي.

5- ذكر "ما" الزّائدة بعد "إذا" يصرفها لمعنى التّوكيد ويجعلها أنسب لمقام الإطالة والتّفصيل، بخلاف ترك ذكْرها فإنّه مناسب لمقام الإجمال والإيجاز.

الهوامش والإحالات:

[1] جمال الدّين بن منظور، لسان العرب، مادة " حذف"، ج4، ص65.

[2] بدر الدّين الزّركشي، البرهان في علوم القرآن، ج3، ص102.

[3] فايز صبحي عبد السّلام تركي، الحذف التركيبي وعلاقته بالنظم والدّلالة بين النظرية والتّطبيق، ص21.

[4] عثمان بن جنّي، الخصائص،ج2، ص360.

[5] سيبويه عمرو بن عثمان بن قنبر، الكتاب، ج1، ص12.

[6] ينظر: عليّ بن إسماعيل المعروف بابن سيّده، المخصص، ج4، ص225، ومجمع اللغة العربية بالقاهرة، المعجم الوسيط؛ ص172.

[7] عثمان بن جني، سرّ صناعة الإعراب،،ج1، ص69.

[8] طاهر سليمان حمّودة، ظاهرة الحذف في الدّرس اللّغوي، ص265.

[9] عثمان بن جنّي، الخصائص، ج2، ص280.

[10] ينظر: ابن يعيش، شرح المفصل، ج2، ص15.

[11] ينظر: عبد العظيم إبراهيم المطعن، خصائص التّعبير القرآني وسماته البلاغيّة، ج2، ص07.

[12] أحمد أحمد بدوي، من بلاغة القرآن، ص95.

[13] عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص479.

[14] الأنعام: 40.

[15] الأنعام: 47.

[16] الأنعام: 46.

[17] يونس: 50.

[18] ينظر: ابن هشام الأنصاري، مغني اللّبيب، ج1، ص240.

[19] جمال الدِّين بن منظور، لسان العرب، مادة: رأى، ج14، ص294.

[20] ينظر: مجد الدّين محمد الفيروزآبادي، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، ج1،ص ص193-194.

[21] الخطيب الإسكافي، درّة التّنزيل وغرّة التّأويل في بيان الآيات المتشابهات في كتاب الله العزيز، ص ص511-512.

[22] ينظر: ابن الزّبير الغرناطي، ملاك التّأويل، ج1، 324، ومحمد الطّاهر بن عاشور، والتّحرير والتّنوير، ج7، ص237.

[23] أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج4، ص135.

[24] بدر الدِّين بن جماعة، كشف المعاني في المتشابه من المثاني، ص161.

[25] يونس: 48.

[26] الخطيب الإسكافي، درّة التّنزيل، ص ص514-515.

[27] آل عمران: 136.

[28] العنكبوت: 58.

[29] الخطيب الإسكافي، درّة التّنزيل ، ص ص396-397.

[30] جار الله الزّمخشري، الكشّاف، ج1، ص409.

[31] ينظر: ابن الزّبير الغرناطي، ملاك التّأويل، ص92.

[32] ينظر: بدر الدِّين بن جماعة، كشف المعاني في المتشابه من المثاني، ص134.

[33] الشّورى: 22.

[34] ينظر: الخطيب الإسكافي، درّة التّنزيل، ص ص398-399.

[35] ينظر: بدر الدين بن جماعة، كشف المعاني في المتشابه من المثاني ص134.

[36] فصّلت: 5.

[37] مريم: 5.

[38] رضي الدين محمد بن الحسن الاستراباذي، شرح الكافية في النحو، ج1، ص681.

[39] إسماعيل بن حماد الجوهري، الصّحاح: تاج اللّغة وصحاح العربيّة، مادة: منن، ص1101.

[40] جلال الدِّين السّيوطي، همع الهوامع،ج4، ص220.

[41] فاضل السامرائي، معاني النّحو، ج2، ص168.

[42] طه: 128.

[43] السّجدة: 26.

[44] الخطيب الإسكافيّ، درّة التّنزيل ، ص296.

[45] ابن الزّبير الغرناطي، ملاك التّأويل، ص343.

[46] السّجدة: 10-11.

[47] ينظر: محمد فاضل السّامرائي، دراسة المتشابه اللفظي من آي التنزيل في كتاب ملاك التأويل، ص ص236-237.

[48] جلال الدّين السّيوطي، معترك الأقران في إعجاز القرآن، ج3، ص178.

(49) طه: 22.

(50) طه: 30.

(51) صالح الشّشري، المتشابه اللّفظي في القرآن الكريم وأسراره البلاغيّة، ص307.

(52) شلتاغ عبّود، أسرار التّشابه الأسلوبي في القرآن الكريم، ص ص201-202.

(53) ينظر: ابن هشام الأنصاري، مغني اللّبيب، ج1، ص50.

(54) هود: 77.

(55) العنكبوت: 33.

(56) يوسف: 96.

(57) هود: 81.

(58) الخطيب الإسكافي، درّة التّنزيل، ص361.

(59) محمود الكرماني، أسرار التّكرار في القرآن المسمّى البرهان في توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحجّة والبيان، ص199.

(60) العنكبوت: 34.

(61) ينظر: هيفاء عثمان عبّاس فدا، زيادة الحروف بين التأييد والمنع وأسرارها البلاغيّة في القرآن الكريم، ص ص626-627،

(62) محمد فاضل السّامرائي، دراسة المتشابه اللفظي من آي التنزيل في كتاب ملاك التأويل، ص240.

(63) جلال الدّين السّيوطي، معترك الأقران في إعجاز القرآن، ج3، ص293.

(64) مصطفى صادق الرّافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النّبويّة، ص190.

(65) محمد الطّاهر بن عاشور، تفسير التّحرير والتّنوير، ج20، ص244.

(66) ينظر: فاطمة فضل السّعدي، تعاقب الذّكر والحذف في آيات القرآن الكريم: دراسة بلاغيّة نحويّة في إعجاز القرآن الكريم، ص29.

(67) العنكبوت: 28-29.

(68) هود: 78.

(69) فاضل صالح السّامرائي، التّعبير القرآني، ص ص127-128.

(70) ينظر: فضل حسن عبّاس، لطائف المنّان وروائع البيان في دعوى الزّيادة في القرآن، ص268.

(71) موفق الدين يعيش بن علي بن يعيش، شرح المفصل، تح: إميل بديع يعقوب، ج9، ص5.

(72) النّساء: من الآية: 78.

(73) الأنفال: من الآية: 57.

(74) فصّلت: من الآية: 20.

(75) ابن هشام الأنصاري، مغني اللّبيب، ج1، ص413.

(76) محمد بن أبي بكر الدّماميني، شرح الدّماميني على مغني اللّبيب، تصحيح وتعليق: أحمد عزو عناية، ج2، ص225.

(77) فصّلت: 20.

(78) الزّمر: 73.

(79) الخطيب الإسكافي، درّة التّنزيل، ص418.

(80) م، ن، ص418.

(81) يونس: 51.

(82) جار الله الزّمخشري، الكشّاف، ج2، ص967.

(83) ابن عاشور ، تفسير التّحرير والتّنوير، ج24، ص266.

(84) ينظر: ابن الزّبير الغرناطي، ملاك التّأويل، ص434.

قائمة المصادر والمراجع

- القرآن الكريم برواية ورش عن نافع.

1- عليّ بن إسماعيل المعروف بابن سيّده(1996م)، المخصص، دار إحياء التّراث العربي ومؤسسة التّاريخ العربي، ط1، بيروت، لبنان.

2- عثمان بن جني(1993م)، سرّ صناعة الإعراب، تحقيق: حسن هنداوي، دار القلم، ط2، دمشق، سوريا.

3- عثمان بن جني(2003م)، الخصائص، تح: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، ط2، بيروت، لبنان.

4- جمال الدّين محمّد بن منظور(2005م)، لسان العرب، دار صادر، ط4، بيروت، لبنان.

5- إسماعيل بن حماد الجوهري(2009م)، الصّحاح: تاج اللّغة وصحاح العربيّة، راجعه واعتنى به محمد محمد تامر وآخران، دار الحديث،ط1، القاهرة، مصر.

6- أثير الدين محمد المعروف بأبي حيان الأندلسي(1978م)، البحر المحيط، دار الفكر ، ط2، دمشق، سوريا..

7- أحمد أحمد بدوي(2005م)، من بلاغة القرآن، دار نهضة مصر، ط1، القاهرة، ص95.
8- أحمد بن الزّبير الغرناطي(د.ت)، ملاك التّأويل القاطع بذوي الإلحاد والتّعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التّنزيل، واضع حواشيه: عبد الغني محمد علي الفاسي، دار الكتب العلمية، د.ط، بيروت، لبنان.
9- بدر الدّين بن جماعة(1990م)، كشف المعاني في المتشابه من المثاني، تح: عبد الجواد خلف، دار الوفاء، ط1، المنصورة، مصر.
10- بدر الدّين محمّد الزّركشي(د.ت)، البرهان في علوم القرآن، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار التراث، د.ط، القاهرة، مصر.
11- جار الله الزمخشري(2008م)، الكشّاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، دار الكتاب العربي، د.ط، بيروت، لبنان.
12- جلال الدّين السّيوطي(1979م)، همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، تح: عبد العال سالم مكرم، دار البحوث العلمية، د.ط، الكويت.
13- جلال الدّين السّيوطي(1988م)، معترك الأقران في إعجاز القرآن، ضبطه وصحّحه: أحمد شمس الدّين، دار الكتب العلميّة، ط1، بيروت، لبنان.
14- جمال الدّين بن هشام الأنصاري(1979م)، مغني اللّبيب عن كُتب الأعاريب، تح: مازن المبارك، ومحمد علي حمد الله، دار الفكر، ط5، بيروت، لبنان.
15- الحذف التركيبي وعلاقته بالنظم والدّلالة بين النظرية والتّطبيق(2011م)، فايز صبحي عبد السّلام تركي، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، لبنان.
16- الخطيب الإسكافي(1418ه)، درّة التّنزيل وغرّة التّأويل في بيان الآيات المتشابهات في كتاب الله العزيز، تح: محمد مصطفى آيدين، منشورات جامعة أمّ القرى، ط1، المملكة العربيّة السّعوديّة.
17- رضي الدين محمد بن الحسن الاستراباذي (1996م)، شرح الكافية في النحو، منشورات جامعة قاريونس، د.ط، بنغازي، ليبيا.
18- سيبويه أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر(1983م)، الكتاب، تح: محمد عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، ط2، القاهرة، مصر.
19- شلتاغ عبّود(2003م)، أسرار التّشابه الأسلوبي في القرآن الكريم، دار المحجّة البيضاء، ط1، بيروت، لبنان،
20- صالح الشّشري(2001م)، المتشابه اللّفظي في القرآن الكريم وأسراره البلاغيّة، رسالة دكتوراه مخطوطة، جامعة أمّ القرى، السّعودية.
21- طاهر سليمان حمّودة(1996م)، ظاهرة الحذف في الدّرس اللّغوي، الدّار الجامعيّة، د.ط، الإسكندرية، مصر.
22- عبد العظيم إبراهيم المطعن(1992م)، خصائص التّعبير القرآني وسماته البلاغيّة، مكتبة وهبة، ط1، القاهرة، مصر.
23- عبد القاهر الجرجاني(1992م)، دلائل الإعجاز، تح: محمد رضوان الدّاية، وفايز الدّاية، تعليق: محمود محمد شاكر، دار المدني، ط3، جدّة، السّعوديّة.
24- فاطمة فضل السّعدي(2013م)، تعاقب الذّكر والحذف في آيات القرآن الكريم: دراسة بلاغيّة نحويّة في إعجاز القرآن الكريم، دار أروقة للدّراسات والنّشر، ط1، عمّان الأردن.
25- فضل حسن عبّاس(1989م)، لطائف المنّان وروائع البيان في دعوى الزّيادة في القرآن، دار النّور،ط1، بيروت، لبنان.
26- مجد الدّين محمد الفيروزآبادي(1996م)، بصائر ذوي التّمييز في لطائف الكتاب العزيز، تح: محمد علي النّجّار، منشورات لجنة إحياء التراث الإسلامي بوزارة الأوقاف المصرية، ط3، القاهرة، مصر.
27- مجمع اللغة العربية بالقاهرة(2004م)، المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، ط4، القاهرة، مصر.
28- محمّد الطاهر بن عاشور(1984م)، تفسير التحرير والتنوير، الدّار التّونسيّة للنّشر، د.ط، تونس،
29- محمد بن أبي بكر الدّماميني(2007م)، شرح الدّماميني على مغني اللّبيب، تصحيح وتعليق: أحمد عزو عناية، مؤسسة التّاريخ العربي، ط1، بيروت، لبنان.
30- فاضل صالح السامرائي(2003م)، معاني النّحو، شركة العاتك لصناعة الكتاب، ط2، القاهرة، مصر.

31- فاضل صالح السّامرائي(2015م)، التّعبير القرآني، دار ابن كثير، ط1، سوريا.
32- محمد فاضل صالح السامرائي(2016م)، دراسة المتشابه اللفظي من آي التّنزيل في كتاب ملاك التّأويل، دار ابن كثير، ط1، سوريا.
33- محمود بن حمزة الكرماني(1977م)، أسرار التّكرار في القرآن المسمّى البرهان في توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحجّة والبيان، تح: عبد القادر أحمد عطا، دار الفضيلة، د.ط، القاهرة، مصر.
34- مصطفى صادق الرّافعي(2003م)، إعجاز القرآن والبلاغة النّبويّة، المكتبة العصريّة، د.ط، صيدا، لبنان.
35- موفق الدين بن يعيش(2001م)، شرح المفصل، تح: إميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت- لبنان.
36- هيفاء عثمان عبّاس فدا(2000م)، زيادة الحروف بين التأييد والمنع وأسرارها البلاغيّة في القرآن الكريم، دار القاهرة، ط1، مصر.